الترجمة بين الموضوعية والذاتية

عمر لحسن
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار – عنابة

استلم في 20/06/02 قبل في 11/11/02

المقدمة

الترجمة فعل حضاري علمي في آن واحد، فبوساطتها تنهض الأمم وتتلاقح الثقافات والحضارات، فالأمة التي تريد أن تؤسس لنفسها حضارة ومجدا، مضطرة إلى معرفة ما توصلت إليه غيرها من الأمم السابقة، وبذلك فهي لا بد أن تلجأ إلى الترجمة لاستلهام ذلك الموروث الإنساني، فهي قديمة قدم الإنسان.

تعريف الترجمة

يقال ترجم الكلام بيّنه ووضحه، وترجم كلام غيره، وعنه: نقله من لغة إلى أخرى [1]. فالترجمة تفسير الكلام بكلام آخر، قد يكون باللغة نفسها، وقد يكون بلسان مغاير، ذلك أن اللغة ترجمان الإنسان عن نفسه، واللغة ترجمان الإنسان عن الكون، واللغة – إلى جانب هذا وذلك – ترجمان الإنسان عن الإنسان، ساعة يكون للواحد منهما لسان غير الذي للآخر [2]. ومن هذا المنطلق، اكتسبت اللغة مكانتها المعروفة في إطار النشاط الفكري والعلمي الذي مارسه الإنسان منذ أن وجد على هذه البسيطة. وقد عرفها البعض بأنها عملية استبدال مفردات من النص الأصلي بمفردات أخرى، معادلة لها معنى، في لغة أخرى [3]، وهي « إيصال فكرة أو إبلاغ، أو قل هي التبليغ، أو تحويل ذلك البلاغ إلى لغة أخرى، وإعطاؤها شكلا مكتوبا أو مسموعا، أو وضع صيغة مطابقة لصيغته

---

[1]) - إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، القاهرة، د. ت، مادة (ترجم).
[2]) - المسدي، ما وراء اللغة، ص 113.
[3]) - محمد ديداوي، علم الترجمة، بين النظرية والتطبيق، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، 1992، ص 15 .

في لغة النقل »[4]. وقد عرفها بعضهم بقوله: « إن الترجمة بمعناها المتخصص تعني النقل من لغة (...) بأقصى قدر من الأمانة إلى لغة متلقية، وهذا عمل يتطلب قدرة وسعة اطلاع وتمكن من لغتين على الأقل، ليتسنى تحقيق مفهوم الترجمة بمعناها الدقيق »[5].

وإن الترجمة نوعان، شفوية وكتابية، وقد ميزت اللغة الفرنسية بين هذين النوعين، فأعطت لكل نوع اسما خاصا، حيث أطلقت على الأولى اسم interprétariat، وعلى الثاني اسم traduction، أما العربية، فلم تميز بين النوعين إذ تطلق على النوعين اسم الترجمة فلا يميز الأول إلا بوصفه " ترجمة فورية ".

وإذا كانت للترجمة هذه الأهمية البالغة، وهذه المكانة الخطيرة في تلاقح الحضارات والتواصل الحضاري بين الأمم عبر مختلف العصور، فكيف تعامل معها الإنسان ؟ هل اعتبرها عملية فنية تستدعي وجود رجال يمتازون بقدرات ومواهب خاصة تناط بهم مسؤولية الترجمة ؟ أم هي عملية علمية، لها أسسها النظرية المتفق عليها ومراحلها الإجرائيـة التي يجب أن يتبعها كل مترجم ؟

الترجمة علم أم فن

لجأ الإنسان إلى الترجمة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، إذ « يؤرخ الدارسون لأولى الترجمات المشهورة في التاريـخ في الألف الثالث ق. م، وكانت قد تمت في الشرق الأدنى، حيث أنجزت ترجمة ملحمة جلجامش إلى اللغة الحثية عن اللغة السومرية »[6].

وقد كانت الترجمة عملية فردية يقوم بها الإنسان بمفرده، بعيدا عن كل إجراء منهجي، معولا في ذلك على قدراته الشخصية ومعرفته باللغتين المنقول منها والمنقول إليها. وقد عرف المصريون كذلك نشاطا مكثفا في مجال الترجمة ابتداء من الفترة نفسها، غير أنها تميزت بطابعها الشفوي، حيث كان " المترجمون interprètes " مكلفون بمهمة الترجمة في مجال العلاقات السياسية

---

[4]) - المرجع نفسه ، ص. ن .

[5]) - عبد الودود العلي، مفهوم الترجمة : تطوره ومعناه، مجلة المترجـم، عدد 01، كانون الأول 1987 ص 89 .

[6]) - نسيمة عيلان، إشكالية ترجمة النص الأدبي، مجلة التواصل، تصدرها جامعة باجي مختار عنابة، عدد 4، جوان 1999، ص 64 .

والاقتصادية مع الأمم الأخرى [7]. وفي العصر الروماني، شهدنا حركة ترجمة حثيثة للأعمال الأدبية والفكرية والفلسفية اليونانية، غير أنه يصعب – في كثير من الأحوال– التمييز بين الأعمال المترجمة والنصوص التي وضعها أصحابها محاكاة لنصوص أصلية كما شهدت هذه المرحلة ظهور التأملات الأولى ذات الطابع النظري حول موضوع الترجمة [8]. من ذلك ما نجده عن الخطيب شيشرون (Cicéron) الذي قام بالتعريف بالآثار الإغريقية، والذي نادى بالتركيز على النص اللاتيني المنقول إليه، وإخضاع النص اليوناني لخصائص اللغة والثقافة اللاتينية، وهو بذلك يصدر عن موقف سياسي وثقافي، هو الرغبة في التعبير عن تفوق العنصر الروماني [9].

أما العرب، فقد ارتبطت الترجمة عندهم بظهور الدولة الإسلامية في العصر الأموي، حيث استعانت بالرومان الذين بقوا في دمشق بعد أن اتخذت عاصمة للخلافة الأموية، في تسيير شؤون الإدارة وفي بوادر التأليف العلمي، حيث كانت ترجمة المؤلفات اليونانية عن طريق اللاتينية، غير أن الترجمة لم تأخذ مجراها الحقيقي، ولم تساهم بشكل فعّال في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية إلا في عهد الخليفة المأمون الذي « أنشأ بيت الحكمة وأناط به جهود الترجمة عن اليونانية مباشرة على أوسع نطاق ممكن، حتى أدت هذه الحركة في النهاية إلى تصادم العقل والنقل [...] ومن الأسماء ذات الشهرة من المترجمين أبو زكريا يحيى بن ماسويه صاحب كتاب " دغل العين " وتلميذه حنين بن إسحاق العبادي أشهر مترجمي المؤلفات العلمية اليونانية إلى العربية والمشرف على بيت الحكمة، ومعه ابنه إسحاق وابن أخيه حبيش بن الحسن وتلميذه عيسى بن يحيى بن ابراهيم. كما ينسب لهذا العصر رجال من أمثال قسطا بن لوقا وأبو بشر متى بن يونس وحنين بن إبراهيم الناطلي » [10]. كما كان الأندلس مركز إشعاع علمي وحضاري، ساهم علماؤه في ترجمة كتب الإغريق القديمة، فساهمت بالحفاظ على هذا التراث الإنساني الكبير، حيث إنه « من الثابت أن ترجمات العرب كان لها أثرها العظيم في الحضارة الغربية، والعرب هم الذين أعطوا لأفلاطون وأرسطو هذه المكانة في التاريخ، وذلك الموقه من السيطرة على الفكر الأوروبي،

---

[7] - Guillemin - Flesher (Jacqueline), traduction , encyclopaedia Universalis, Paris 1998 , Vol 22, p. 829 .

[8] - Idem , p. 829 .

[9] - Idem , p. 830 .

[10]) - تمام حسان، اللغة العربية بين العوربة والعولمة، ندوة " مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية "، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 6 - 8 نوفمبر 2000، ص 181 - 182 .

وليس عبر الترجمة والاتصالات وحسب، بل عبر التعليقات والتفسيرات أيضا » [11].

كما ازدهرت الترجمة في عصر النهضة الأوروبية، ابتداء من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر، من خلال اطلاع الأوروبين في البداية الترجمات العربية للمؤلفات الإغريقية، ثم انتشار تعلم اللاتينية، والترجمة منها مباشرة إلى لغاتهم الوطنية التي بدأت ستقل تدريجيا عن اللاتينية، وكانت ترجمة مارتن لوثر للإنجيل قد أعطت بعدا جديدا للترجمة وهو ضرورة جعل الكتاب المقدس في متناول الشعب، فيقرأه الجميع، حيث سمح لنفسه بإجراء تعديلات على الأبنية والمصطلحات التي لم تكن مفهومة في الألمانية. كما أصبح المترجمون في هذه الفترة ينظرون إلى ترجماتهم على أنها خلقا جديدا مستقلا عن النص الأصلي[12]. وهكذا، نلاحظ أن الترجمة كانت خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة تعتبر فنا، يعول فيها على القدرات الشخصية للمترجم، وإن كان الرومان والعرب قد حاولوا أن ينشئوا لها مؤسسات رسمية تسهر عليها وتنشطها.

أما في القرن العشرين، فإن وضع الترجمة يصبح أكثر تعقيدا. وقد ظهر عاملان جديدان أثرا تأثيرا بالغا في عالم الترجمة: على المستوى العلمي، ظهور اللسانيات، وعلى المستوى التقني دخول الإعلام الآلي في ميدان الترجمة.

أما اللسانيات، فقد اعتبرت وسيلة مساعدة تعطي الترجمة دقة عالية، وقد ظهر تأثيرها في إطار المدرسة البنيوية ألأوروبية (حلقة براغ)، والأمريكية، بدعم من يوجين نيدا Eugène Nida، رئيس جمعية ترجمة الإنجيل. وقد سجلت مؤلفاته " بنية الكلام ونظرية الترجمة structure of language and theory of translation، وبشكل خاص كتابه " من أجل علم للترجمة towards a science of translation، رؤية جديدة للترجمة التي كانت تعتبر قبله فنا [13]. وقد ظهر بعده- في أوربا بشكل خاص - مجموعة كبيرة من منظري الترجمة، أمثال: جورج شتاينير George Steiner وهنري ميشونيك Henry Meschonic، ولويس كيلي Louis Kelly وبيتر نيومارك Peter Newmark. وقد ركز هؤلاء المنظرون على مظهرين من مظاهر الكلام: البعد الثقافي، والبعد الخطابي.

---

[11] - Edward Atiyah, the arabs, Penguin books LTD, Edimbourg 1995 . نقلا عن نسيمة عيلان ، إشكالية ترجمة النص الأدبي ، ص 67 .

Guillemin - Flesher (Jacqueline), traduction , p. 830 . - [11]

Guillemin - Flesher (Jacqueline), traduction , p. 830 - 831 -[11].

Guillemin - Flesher (Jacqueline), traduction , p. 830 . - [12]

Guillemin - Flesher (Jacqueline), traduction , p. 830 - 831 -[13].

أما الإعلام الآلي، فقد كان سببا في ظهور فكرة الترجمة الآلية traduction automatique، التي تدعو إلى ضرورة قيام الآلة بعملية الترجمة بكل مراحلها، دون تدخل الإنسان، حيث يزود جهاز الحاسوب ببرنامج يسمح له بنقل أي نص من لغة إلى أخرى بصفة آلية، غير أن هذه الفكرة سرعان ما أظهرت نواقصها، حيث عجزت كل البرامج الموضوعة إلى حد الآن في ترجمة النصوص بشكل تام، نظرا إلى صعوبة إخضاع المستوى الدلالي إلى التشكيل آلي formalisation du sens، نظرا إلى تدخل عوامل عديدة في تشكيل دلالات النصوص، وبخاصة المستوى المجازي الذي يصعب – إن لم نقل يستحيل – معالجته بصفة آلية، وبذلك تحول الدراسات والبحوث من فكرة الترجمة الآلية (T.A) إلى فكرة الترجمة بمساعدة الحاسوب traduction assistée par ordinateur (T.A.O). وهذا الفشل يؤكد بشكل غير مباشر أن الترجمة تبقى عملا يحتاج إلى قسط كبير من الحدس والقدرة اللغوية للمترجم.

وبذلك يمكن أن نستنتج من هذا العرض لتاريخ الترجمة خلال هذه العصور الطويلة، أن الترجمة تبقى عملا إنسانيا يحتاج إلى موهبة فردية متميزة، ومعرفة واسعة باللغتين، وإن كان ما أحرزته الترجمة من تقدم على المستوى العلمي أمر لا يستهان به، إذ يسهل العملية على المترجم، ويزيل من طريقه جملة من العقبات.

وإذا كان الباحثون في الدول الأوروبية والولايات المتحدة يبحثون عن أنجع البرامج الحاسوبية لجعل الترجمة أكثر دقة وإعطائها صبغة علمية آلية، فإنها ما زالت في عالمنا العربي، تتخبط في مجموعة كبيرة من المشكلات، مردها في كثير من الأحيان إلى الأسباب الآتية:

منها ما يعود إلى المترجم نفسه الذي يفترض فيه أن يكون ملما باللغتين المنقول منها والمنقول إليها من جهة، وبالمحتوى العلمي الذي هو بصدد ترجمته، فالمترجم – الذي هو مزدوج اللسان بالضرورة – لا يتسنى له أن ينقل مادة إبلاغية من لغة إلى أخرى إلا إذا أحكم مواضعات اللغتين غاية الإحكام، فضلا عن ضرورة إحكام المحتوى الدلالي المنقول، من حيث هو علمٌ أو خبر أو استدلال(14)، وهو ما أكده الجاحظ في قوله: « ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية (...)، وكلما كان الباب

[14] - المسدي، ما وراء اللغة، ص 115

من العلم أعسر وأضيق والعلماء به أقل كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء من العلماء » [15].

وأما ابن خلدون، فيلح – من جهته – على قصور ملكة الإنسان المزدوج لسانيا، لا في كلتا اللغتين، وإنما في اللغة الطارئة – التي كثيرا ما يترجم منها وقلما يترجم إليها – معللا ذلك بعاملين اثنين: أولهما فارق السن في الاكتساب والتحصيل، لأن اللغة الطارئة لاحقة بلغة الأمومة، التي هي الأصل بالوضع والزمن، وثانيهما سبق الملكة الأولى ورسوخها في النفس إلى حد تتملك فيه جوامع الاستعدادات ومؤهلات القبول[16].

فالترجمة يستدعي معرفة مسبقة باللغة، ومعرفة مسبقة بالحقل أو التخصص المعرفي المتمحض له، فإن العالم غير اللغوي أو غير المتمكن من لغته تمكنا عاليا لا يمكن أن نطمع فيه أن يأتي من الأمر ما لم يقيض له. فهو لا يعرف اللغة بالمقدار الذي يجعله يبدع بها مصطلحات جديدة[17].

اختلاف المدارس العربية من مشرقية ومغربية، وتونسية ومغربية وجزائرية... الخ، ومنها ما يعود إلى انعدام هياكل وإطارات نظامية تسهر على توحيد المصطلح ونشره في العالم العربي، ومنها إلى نقص العلاقات والتبادل بين المترجمين والمهتمين بالدراسات اللسانية في العالم العربي، إن لم نقل انعدمها.

اعتباطية العمل عند الكثير من المترجمين، أي عدم خضوعه لضوابط علمية، وذلك بعدم مراعاته لمعطيات العلوم الحديثة بصفة خاصة، ومنهجية العلوم الاجتماعية بصفة عامة.

اقتصاره على البحوث الفردية التي هي أشبه شيء بالصناعات التقليدية يعتمد فيه على المعالجة اليدوية كالنظر الجزئي في القواميس والاقتصار على جرد العديد من المعلومات بالأيدي العزلاء [18].

غياب التنسيق أو العمل المشترك، وحالة مكتب تنسيق التعريب خير مثال على ذلك، فهو هيئة تنشط منذ 1961 في مجال وضع المصطلح وترجمته، غير

[15]) - الجاحظ ، الحيوان ، ج 5 ص 289 .

[16]) - ابن خلدون ، المقدمة ، ص 563 .

[17]) - عبد الملك مرتاض ، صناعة المصطلح في العربية ، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، عدد 02 ، سنة 1999 ، ص 21 .

[18]) - عبد الرحمن الحاج صالح ، اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات، ندوة "مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية "، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، 6 - 8 نوفمبر 2000، ص 25 - 26 .